السوريون في الولايات المتحدة

(٤)

احوالهم الاجتماعية

﴿مساكنهم﴾ تقدّم معنا ان السوريين بطبيعة اعمالهم يؤثرون السكنى بين الاميركيين على الاقامة في مستعمرات خاصة بهم كما يفعل الكثيرون من المهاجرين. وبذلك يقتبسون من الوطنيين طرائق المعيشة الحديثة وامور تدبير المنزل ووسائط النظافة والترتيب بينما تكون المستعمرات الاجنبية في الغالب في الاحياء المظلمة القذرة الضيقة الخالية من الوسائل الصحية حيث الهواء النقي ضرب من الترف واشعة الشمس لا تدخل بدون اجازة . في مستعمرات كهذه يسميها الاميركيون (Slums) ويصعب على الشرقي تصوّرها لعدم وجود ما يماثلها في بلاده — يقيم الآلاف المؤلفة من الايطاليين واليهود والصينيين مزدحمين معزل عن الحياة المدنية فكانهم في العالم الجديد وليسوا منهُ وكان مستعمراتهم بقع مستنقعات راكدة ساكنة على شاطىء نهر المدنية الجارف

وجود هذه البقع في جسم البلاد هو من اهم المعضلات التي يعالجها المصلحون فيها وهو اعظم عثرة في سبيل « تأمرُك » ساكنيها وانصماجهم مع الوطنيين

وليس عند السوريين ما يقابل شيئاً من ذلك على الاطلاق . فمستعمرتهم في وشنطن ستريت بنيويورك كادت تصبح الآن سوقاً تجارية لاحيًّا للاقامة . واحياؤهم في فيلادلفيا وسنسناتي وسنت لويس والبني مزدحمة قذرة ولكن مستر هوطن تقول (١) « ومع ذلك فان احقر بيت سوري في البني يفوق بنظافته كل بيوت الايطاليان الذين يقيمون بينهم » وتضيف مستر هوطن الى ذلك قولها « ان بيوت الطبقة الراقية من السوريين المقيمين في جنوب بركلين تفضل بيوت اي كان من المهاجرين من كل الشعوب في سائر انحاء الولايات المتحدة » . ولما درست لجنة المهاجرة(٢) احوال المهاجرين البيئية في اردإ احياء نيويورك وشيكاغو وفيلادلفيا وبوسطن وكليفلند وبفلو وملواكي وجدت ان في لمئة

(١) "The Survey" عدد ١ تموز سنة ١٩١١

(٢) "Reports" مجلد ١ ص ٧٢٧

٢٦٫١ من ال ٣٥٧ بيتاً سورياً التي فحصها يجوز ان تُسمّت « بجيّدة » من حيث النظافة والاعتناء وفي المئة ٥٨٫٣ « صالحة » و١٣٫٤ « رديئة » و٢٫٢ « رديئة الى الغاية » . يقابلها ٤٥٫٣ في المئة من ال ١٢٣ ١٠ من بيوت الوطنيين والاجانب غيرهم يجوزان تُسمّت « بجيّدة » و ٣٩ في المئة صالحة » و١٢ « رديئة » و ٢٫٩ « رديئة جدًّا »

﴿ الملاهي ﴾ الطرز القديم من السوريين لا يجدون في غير قرقعة النارجيلة وممرّ القهوة العربية تسلية لهم في غربتهم وسلوانًا يقدرهم على احتمال متاعب حياتهم الجديدة الغريبة فيقبلون عليها في المطاعم والمحلات الشبيهة بالقهاوي . اما الاحداث منهم فيتردّدون على قاعات الصور المتحرّكة والتياترات وبعضهم على قاعات الرقص الاّ ان عدد الاخيرين اقل مما كان ينتظر منهم بين قوم يعبدون اله الرقص

وليس للسوريين شغف بالالعاب الرياضية في الفضاء لانهم اعتادوا في بلادهم الحارة السير البطيء والاكتفاء بلعب « الطاولة » التي لا تستلزم حركة بدنية عنيفة وذلك برغم كونهم في وسط كلهُ حركة واندفاع وبين قوم ينزّل لاعب الكرة base ball منزلة الابطال ويقدم لهُ الاكرام والاحترام. لذلك نجد عدد السوريين الذين يدخلون في عضوية الجمعيات الرياضية وجمعيات الشبان المسيحيين قليلاً

﴿ العيشة العائلية ﴾ السوري حيث كان يرغب في العيشة البيتية ولا يجنح الى عيشة النوادي الاجتماعية Social Clubs وهو لم يزل في الطور الذي تعتبر فيهِ العلاقة الزوجية امراً مقدّساً . ففضائلهُ بالاكثر فضائل عائلية . ولا يمكن فهم مستواهُ الادبي ما لم تُدرَك هذه الحقيقة اولاً . فالوالد هو رأس العائلة القيّم على آدابها ويتحتم على المرأة والاولاد معاملتهُ بالتجلة والاحترام . الاخلال بالفضيلة الزوجية امر يكاد يكون مجهولاً والطلاق الذي يعتبرهُ المصلحون الاميركيون غيمة سوداء في افق مدنيتهم غير معروف عند السوريين . انما المشكلة العائلية الكبرى هي وجود هوّة اجتماعية عقلية بين الوالدين اللذين لا يعرفان غير العربية وهما من ذوي الافكار القديمة وبين الاولاد المولودين والمتربين في الولايات المتكلمين بالانكليزية وذوي الافكار الحديثة . فالوالد يميل لان يطلب من بنيهِ طاعة عمياء كما طلب منهُ والدهُ في احدى مزارع لبنان والابن الدارس في المدرسة الاميركية العمومية يصعب عليهِ ان يحترم ويطيع والداً يحسبهُ دونهُ من

حيث التكيف واتقان اللغة لاسيما بعدما يعرف درجة الحرية التي يتمتع بها الاولاد الاميركيون

جاء معنا ان الذي يهاجر يكون غالباً من ذوي النفوس الطامحة والنظر البعيد والعقول المستعدة للتغير وان المحيط الجديد يوقظ فيه مواهب كامنة ربما لم يشعر قط بوجودها لو لم يهاجر . ومن الحقائق التي قرّرها علماء الاجتماع فوق ذلك ان الاولاد الاول المولودين من آباء اجانب في بلاد غريبة ليسوا في الغالب مثل آبائهم ولا مثل القوم الذين ولدوا بينهم . يعوزهم كثير من مواهب آبائهم ومن مواهب ابناء الوسط الجديد ليعتاضوا بها . فهم عقليا ومن حيث الخلق الموروث — لا المكتسب — دون الفريقين . ذلك امر ايّدتهُ ملاحظاتي في الابناء السوريين الاميركيين . وللآن لم تُدرَك السنن التي تسير عليها هذه التغيرات ولا مدة استمرارها في الاجيال التالية . ويرجّح ان الجيل الثاني يفضل الجيل الاول من المولودين

﴿ جمعياتهم ﴾ للسوريين في نيويورك وحدها ٢٥ جمعية (منها اربع للنساء) اساس العضوية في بعضها كجمعية الشبيبة البيروتية وجمعية رام الله جغرافي وفي بعضها الآخر كالجمعية المارونية طائفي وفي غيرها كالنهضة اللبنانية سياسي وفي سواها تهذيبي اوخيري . وليس لهم جمعية جامعة تمثلهم كمجموع وتظهرهم بالمظهر الحسن اللائق بين الجاليات وتجاه الوطنيين كما هي الحال في الجامعة اليونانية لليونانيين الامر الذي يدل على عدم الوحدة الفكرية بينهم . ولقد بلغت رغبتهم في الجمعيات المتفشية بينهم درجة جعلت احد اطبائهم يقول منذ عامين انهم مصابون بمرض جديد سماهُ مرض الجمعيات

وليس بين جمعياتهم على كثرتها جمعية فوضوية او اشتراكية برغم انتشار مبادىء كارل ماركس انتشاراً غريباً في اواخر مدة الحرب والايام التي عقبتها . وكانت وزارة الداخلية توجس خوفاً من انتشار المبادىء البلشفية والاجتماعية المتطرّفة وتقف بالمرصاد لجمعيات الاجانب ولكنها لم تشتبه قط باحد من السوريين . ولما سألتني في جملة من سألت عن تعليل ذلك اجبت ان السوري بوراثته وتطبّعه افرادي الى درجة متناهية فيأنف من كل مشروع اساسهُ نظرية اجتماعية . ويظهر انها اصبحت بعدئذٍ عامن تام منهم لانها اغضت عنهم

تمام الاغضاء وحوّلت انظارها في وجهات اخرى . واتصل بي ان احدهم حاول مرّة تأسيس فرع للاشتراكية في وشنطن ستريت فاخفق مسعاهُ

مستواهم الادبي

﴿ الفضيلة الاجتماعية ﴾ السوريون في الولايات المتحدة عبارة عن قوم تكتنفهم نتائج المدنية الحديثة واثارها — من حرية وديمقراطية ومساواة — دون ان يكونوا في تاريخهم قد تطوّروا واجتازوا الادوار الاجتماعية التي انتجت تلك الآثار وبالتالي دون ان يكون قد تولّدت فيهم الحواجز والرادعات النفسية اللازمة لردع الفرد عن التوغل فيها واساءة استعمالها . فلا عجب اذا حسب بعض شبانهم الحرية فوضى والمساواة مباعاة وعناداً لاسيما وان الربط التي كانت تربطهم بقومهم وعائلاتهم وكنائسهم في وطنهم القديم تكاد تكون مفصومة العرى انما العجب ان عدد الفالتين ليس باكثر مما هو

ويظهر من شهادات الاطباء الذين يمارسون الطب بينهم ان عدد المصابين منهم بالامراض الجنسية قليل جدًّا بالنسبة الى عددهم

ومما يستحق الذكر والافتخار ان تقارير البوليس لا تشير الى وجود امرأة سورية واحدة مشتبه في حسن سمعتها

﴿ إدمان الخمر ﴾ قبل ان وضعت الحكومة الاميركية منذ عامين قانوناً بحظر صناعة الاشربة الالكحولية والاتجار بها وشربها كنت ترى على زاوية كل شارع تقريباً في مدن الولايات هيكلاً لعبادة اله الخمر او صالوناً في اصطلاح الغربيين . ويقابل الصالونات عند السوريين القهاوي وضررها لا يذكر في جنب ضرر الصالونات بما فيها من الوسكي والبيرة والخمور وما ينتج عن ادمانها من الجرائم وحوادث الطلاق حتى ان المفكرين من الاميركيين اجمعوا على ان المسكر هو آفة الآفات في المدنية الحديثة

لا يفهم من هذا ان السوريين لا يشربون انما عدد مدمني الخمرة منهم اقل من عدد مدمنيها بين سائر المهاجرين وبين الاميركيين انفسهم باعتبار النسبة العددية . ولطالما اثنى كتبة الاميركان على هذه الخصلة فيهم وحسبوها اكليل فضائلهم وكمالاتهم . ولقد حاول احدهم مرة فتح صالون في وشنطن ستريت فلقي الخيبة والفشل كما لقي محاول زرع بذور الاشتراكية . ولما اخذت مستعمرتهم في

شيكاغو تمتد الى شارع اسمهُ شرمان تكثر فيهِ الصالونات اخذ اصحاب الحانات هناك يهجرون ذلك الشارع

وفي مقالة نشرها الاديب ميشال معلوف في جريدة بوسطن المسائية (١) ان سيدة اميركية بعد درسها احوال السوريين الاجتماعية في تلك المدينة سنين عديدة صرحت بانها في خلال ثماني سنوات لم تقع عينها على امرأة سورية في حالة السكر ولم تر سوى رجل واحد سكران

﴿ الميسر ﴾ كما ان الضيافة هي اكبر فضائلهم كذلك الميسر هو شر رذائلهم. وقليل من السوريين في الولايات من لا يعرف اساليب المقامرة وكثير منهم من يمارسها . ولا شك ان الاقدمين من سوريين وغيرهم كان لهم المام بالعاب مدارها الحظ والنصيب ولكن القمار كما يمارسهُ المتمدنون فن مستحدث جديد

ويظهر من تقرير منزل دنيسن الاجتماعي في بوسطن Denison House ان منظر الاولاد السوريين يلعبون في حيهم « بالكراب » (٢) Crap اصبح امراً اعتيادياً مألوفاً لاسيما ايام الاحاد والاعياد

﴿ الجرائم ﴾ المتعارف بين الاميركيين وغيرهم ان معظم الجرائم يرتكبها الاجانب في الولايات المتحدة ولكن التقارير الرسمية تثبت ما يخالف ذلك . وليس بين المهاجرين اتقى صحيفة من ابناء سوريا . فللارلنديين هنالك جمعية ملي مغوير « Molly Maguires » الفوضوية وللايطاليان اليد السوداء وللارمن جمعية الفدائيين كتشناك ولليهود والافرنسيس تجارة الرقيق الابيض وليس للسوريين شيء من هذا القبيل . فهم باجماع شهادة العارفين محبون للسلام خاضعون لشرائع البلاد عاكفون على العمل والتحصيل

قال الاستاذ ملر (٣) احد المدرسين في جامعة برنستون « ليس من يفضل السوري في محبتهِ للنظام ومحافظتهِ على القانون . ولقد توليت بنفسي فحص تقارير المحاكم والبوليس فوجدتها تشهد ان ليس بين شعوب نيويورك شعب مسالم مثلهُ »

---

(١) Boston Evening Transcript عدد ٢٢ آب سنة ١٩١٧

(٢) هي لعبة قوامها رمي حجري الزهر بالتقارب واعتبار العددين ٧ و ١١ رابحين

(٣) Lucius H. Miller. "A Study of the Syrian Population of Greater New York" صفحة ١٥

وقالت مسز هوطن في مقالاتها المذكورة آنفاً « استشهدتُ القضاة والحكام في كل المدن التي يكثر فيها السوريون فوجدتهم صوتاً حيًّا ناطقاً بتفوق السوريين على سائر شعوب الارض بالسكينة والمحافظة على شرائع البلاد المقيمين فيها »

ومن امعن النظر في حوادث الجرائم التي يقترفها السوريون يرى ان اكثرها من النوع البسيط كالتجول لبيع بدون رخصة رسمية او المسبَّب عن جهل اللغة ومصطلحات البلاد . ولقد حدثني مرة عامل عن نفسهِ قال انهُ كاد يفقد حياتهُ ذات يوم وهو مجدّ في الصباح الباكر لمباشرة عملهِ في مصنع للاسلحة فمنَّ لهُ ان يختصر الطريق ويقفز من فوق سور المعمل ولما انتهرهُ الحارس وامرهُ بالوقوف عمد الى الركض لانهُ لم يفهم مرادهُ كما انهُ لم يفهم الكتابة الناهية عن الوثب من فوق السور . ومن حوادث هذا الرجل وهو مولود في قرية دفون بلبنان انهُ كان في خدمة فلاح في ولاية كليفورنيا فسمع يوماً مستخدمهُ يقول لابنتهِ انهُ عازم على ان يذبح ديكاً حبشيًّا واسمهُ بالانكليزية «تركي» (Turkey) في عيد الشكر (وهو آخر خميس من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) تحتفل فيهِ الامة الاميركية والكل يفطرون ديكاً روميًّا) فحسبهُ يعنيهِ بصفتهِ « تركيا » عثمانياً . وما التقى الليل سدولهُ حتى تأبط حوائجهُ واذعن الى الفرار . فلحظ الفلاح ذلك منهُ وظنهُ سارقاً فهمَّ بلحاقهِ وبندقيتهُ في يدهِ يطلقها عليهِ الى ان توارى عن الابصار وراء اشجار الغابات الكثيفة

وفيما سوى ذلك فجرائم السوريين قليلة مقتصرة على المشاجرات وتهريب البضائع من الكمرك

ومن عادة السوريين ان يقوموا في اثناء مشاجراتهم بضجات عالية فيتوهم البوليس ويخبرو الجرائد ان الحادث جلل لا بد ان يسفر عن قتل وجرح الكثيرين. وما قالهُ الاستاذ فارتشيلد عن اليونانيين يصح عليهم وهو « ان بحارة قارب واحد من اليونان يقومون بضجة وجلبة لا يحدثها امبراطور انجلوسكسوني يدير اسطولهُ » . فالشغب الذي جرى بين الموارنة والروم في نيويورك سنة ١٩٠٥ لا يزال اثرهُ السيء في اذهان الاميركيين للآن لانهُ كان اول واسطة للتعارف بين الفريقين كشعبين فنسجت حولهُ الجرائد الاميركية المقالات الضافية وزينتها بالرسوم واحتلها المقام الاول في صفحاتها . ومنها جريدة نيويورك هرالد المحسوبة من

المحافظات الرصينات بين الجرائد الكبرى في البلاد فانها حبرت مقالاً طويلاً في هذا الموضوع وعنونتهُ باحرف ضخمة بارزة هكذا : « حرب الاحزاب السورية في نيويورك . جراح بالمدى وبالرصاص . الاخ على اخيهِ وابناء البلدة الواحدة ضد ابناء البلدة الاخرى . اصدقاء الامس اعداء اليوم . حرب شرقية اصلحتها اميركية . عويل النساء وصعيق الاطفال يشق كبد السماء الخ الخ » وكذلك فعلت جريدة تيمس نيويورك والحال ان نتيجة القتال كلهِ برغم تجدُّد وقعاتهِ كل يوم مدة اسبوع لم تكن سوى قتيل واحد وجرحى يعدون على الاصابع

﴿علاقتهم بالوطنيين﴾ السوريون مع كثرتهم في اعتبارنا هم في نظر الحقيقة نقطة في بحر المهاجرين الى الولايات المتحدة وكثيرون من سكانها الآن لم تقع عينهم على سوري

وسنة ١٩٠٩ رفضت محكمة سنت لويس سوريًّا طالباً التجنُّس بالجنسية الاميركية بدعوى انهُ من غير الجنس الابيض . فاستؤنفت دعواهُ الى المحكمة العليا واتخذت المسألة اهمية وطنية الى ان قضت المحكمة العليا حكم المحكمة الابتدائية . وكذلك فعلت محكمة الاستئناف في نيويورك عند ما رفض قاضي المحكمة الابتدائية فيها منح الرعوية لطالب آخر من السوريين

ومن المرجح ان جماعة من المبشرين مدفوعين بعامل استنهاض همم قومهم واثارة عواطفهم لعضد المشاريع التبشيرية في سوريا اظهروا السوريين بمظهر غير لائق. فكنت احياناً اتعرَّف بشخص في كنيسة او اجتماع ديني فيسألني عن عدد السنين التي مرَّت منذ اعتناقي المسيحية وعما اذا كان والداي مسيحيين فأجيبهُ بالطف اسلوب ممكن ان عهد تنصير آبائي يرجع الى ايام بولس الرسول . اما تأثير اساتذة الجامعة الاميركية فكان بالاجمال على ضد ذلك . ومن هؤلاء الاستاذ ملر من جامعة برنستون الذي استشهدنا بهِ سابقاً والدكتور ليري(١) الذي كتب في احد تآليفهِ ما تعريبهُ : « ابن اي فلاح سوري كان ربما اصبح في مستقبل الايام موظفاً كبيراً في حكومة مصر او تاجراً مثرياً في الارجنتين او شاعراً باللغة الافرنسية او راعياً لكنيسة اميركية في الولايات المتحدة . وان الترجمان الذي يرافقك في سياحتك الى الارض المقدسة ربما كان صاحب تآليف بالانكليزية الفصحى تشتهي ان تطَّلع عليها او جرَّاحاً تنقذك براعتهُ من خطر الموت . وما

(١) Lewis G. Leary, "Syria the Land of Lebanon." ص ٢٤—٢٥

هذه نظريات اتوهمها بل حقائق أبنيها على سير اشخاص اعرفهم. ومن ابناء سوريا في ارض المهجر من سعى سعياً وجاهد جهاداً يذكرنا بقصة غرفيلد او لنكلن (من رؤساء الجمهورية الاميركية واعظم ابطالها) ... فالسوري مقتصد معتدل طماح الى العلى ودود قابل للتكيف مضياف للغرباء لطيف العشرة ذو عقل نير وطبيعة دينية وميل الى التضحية في سبيل غاية يعتقدها »

وما اللوم كلهُ على الاميركيين في انهم لا يفهمون السوريين بل على السوريين انفسهم فانهم هنالك — على ما قالت لي سيدة اميركية تعجب بهم وتغار على سيئاتهم — مختبئون وراء جرائدهم ولغتهم العربية . وهاك مثالاً من جريدة عربية وصلتني اليوم من نيويورك وفيها نبأ مقابلة الوفد الصهيوني للرئيس هاردنغ وتصريح الرئيس باستعداده لعضد الفكرة الصهيونية. ولقد عقب المحرر على ذلك بمقال طويل جاء فيهِ ان هاردنغ لا يعرف نسبة اليهود العددية الى بقية العناصر في فلسطين الى آخر ما هنالك من الحجج المألوفة عندنا والتي لا سبيل لها للوصول الى الرأي العام ما لم تصدر باللغة الانكليزية . فرسالة بالانكليزية ترسل الى محرر جريدة اميركية او الى البيت الابيض راساً خير من مجلد يكتب بالعربية

وربما كانت كتابات القس ابرهيم الرحباني وتآليفهُ الانكليزية واخصها « المسيح السوري » "The Syrian Christ" من اكبر العوامل التي تساعد الاميركيين على فهم السوريين وتقديرهم قدرهم

وبقيت الحال على ذلك الى ان جاءت الحرب العظمى وظهر السوريون بمظهر وطني شائق وبرهنوا بخدماتهم اخلاصهم الشديد لحكومة اميركا وتعلقهم بمبادئها كما سنبينهُ فيما يلي فبدأ شعور الوطنيين للحال يتغير نحوهم . فلولا الحرب لما كان الاستاذ كول (١) كتب عنهم ما كتب في رسالة نشرها المجلس التهذيبي في ولاية ماستشوستس . ومن قولهِ « السوريون شعب على جانب عظيم من الذكاء والتدين رمضاء العزمة . وهم يفاخرون بجنسيتهم ويقبلون على التهذيب ويخلصون لمعالم العمران في هذه البلاد .ومن فضائلهم لطف المعاشرة واكرام الضيف والاعتدال»

(ستأتي البقية) فيليب حتي

(١) William J. Cole, " Immigrant Races in Massachusetts, the Syrians". صفحة ٤